تفسير سورة ق

وهى مكية

هذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العوام: إنه من (عَمّ) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هى أول المفصل ما رواه أبو داود عن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك فى قُبة له ـ قال مسَدَّد: وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا ـ قال أبو سعيد: قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ـ فأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء وكنا مستضعفين مستذلين ـ قال مُسدَّد: بمكة ـ فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا . فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذى كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة ! قال: «إنه طرأ على حزبى من القرآن، فكرهت أن أجىء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده. ورواه ابن ماجه والإمام أحمد (١) .

إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذى قلناه، ولله الحمد والمنة.

روى الإمام أحمد؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد؟ قال: بقاف، واقتربت. ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة (٢).

وروى أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تَنُّورنا وتنور النبى ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس. رواه مسلم وأبو داود والنسائى (٣). والقصد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، والله أعلم.

---

(١) مضى مختصرا (١/ ٤٥) .
(٢) المسند (٥/ ٢١٧) ومسلم (٨٩١/ ١٤) وأبو داود (١١٥٤) .
(٣) المسند (٦/ ٤٣٥) ومسلم (٨٧٣/ ٥٢) وأبو داود (١١٠٠) والنسائى (٢/ ١٥٧) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾

﴿قٓ﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته. وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : ﴿قٓ﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف. وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى فى هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبى ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل، ولا حرج » (١) فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تُحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل ـ والله أعلم. وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أى : الكريم العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. واختلفوا فى جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه: قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾. وفى هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير فى أقسام القرآن كما تقدم فى قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أى: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أى: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم فى عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ؟ أى: يقولون: أئذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أى: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه، قال الله تعالى رادا عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من أجسادهم فى البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت ؟ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أى: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أى: وهذا

(١) البخارى (٣٤٦١) .

حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝ ﴾

يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التى أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾؟ أى: بالمصابيح ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾. قال مجاهد: يعنى من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل، أى: عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أى: وسعناها وفرشناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهى: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أى: حسن نضر ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أى: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أى: خاضع خائف وجل رَجَّاع إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أى: نافعاً ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أى: حدائق من بساتين ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو: الزرع الذى يراد لحبه وادخاره. ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أى: طوالا شاهقات. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم: الباسقات الطوال ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أى: منضود ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: للخلق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وهى الأرض التى كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف فى حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيى الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ ﴾

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم فى الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم فى سورة «الفرقان» . ﴿وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو اليمانى. وقد ذكرنا من شأنه فى سورة الدخان» بما أغنى عن إعادته هاهنا ولله الحمد. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أى: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذبت رسولهم، ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم فى نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أى: فحق عليهم ما أوعدهم الله على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أى: أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] ، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقد تقدم فى الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذينى ابن آدم، يقول: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته»(١).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بنى آدم من الخير والشر. وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» (٢).

وقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يعنى: ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾، كما قال فى المحتضر: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥]، يعنى ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] ، فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله، عز وجل. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم

(١) البخارى (٤٩٧٤) .

(٢) البخارى (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧/ ٢٠٢) .

على ذلك، فللملك لَمّة فى الإنسان كما أن للشيطان لمة ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعنى: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أى: مترصد ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أى: ابن آدم ﴿مِن قَوْلٍ﴾ أى: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أى: إلا ولها من يراقبها معدٌّ لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شىء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. وقد روى الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزنى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث. ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح.

قال الحسن البصرى وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. [الإسراء: ١٣، ١٤] ثم يقول: عدل ـ والله ـ فيك من جعلك حسيب نفسك. وقال ابن عباس: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: «أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت»، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائره، وذلك قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يثن فى مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شىء حتى الأنين. فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، يقول عز وجل: وجاءت ـ أيها الإنسان ـ سكرة الموت بالحق، أى: كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أى: هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص. وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل غير ذلك.

وعن البهى قال: لما أن ثقل أبو بكر جاءت عائشة، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول:

«سبحان الله! إن للموت لسكرات» (١). وفى قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قولان: أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة، أى: الذى كنت منه تحيد ـ بمعنى: تبتعد وتنأى وتفر ـ قد حل بك ونزل بساحتك. والقول الثانى: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾. قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور للفزع والصعق والبعث، وذلك يوم القيامة. وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له». قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل (٢). ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أى: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، ثم روى عن عثمان بن عفان أنه خطب، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد. عن أبى هريرة: السائق: الملك، والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسدى. وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مُزاحم أيضا.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال فى المراد بهذا الخطاب فى قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: أحدها: أن المراد بذلك الكافر. عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان. والثانى: أن المراد بذلك كل أحد من: بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن عبد الله بن عباس. والثالث: أن المخاطب بذلك النبى ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت فى غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد. والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يعنى: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أى: قوى؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا، حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ربع قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أى: معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذى وكلتنى به، قد أحضرته. وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه

(١) البخارى (٦٥١٠). (٢) انظر: السلسلة الصحيحة للألبانى (١٠٧٩).

وقوة. فعند ذلك يحكم الله، تعالى، فى الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾. وقد اختلف النحاة فى قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾، فقال بعضهم: هى لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، وقيل: بل هى نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون فى الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه فى نار جهنم وبئس المصير.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى: كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿عَنِيدٍ﴾ : معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أى: لا يؤدى ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿مُعْتَدٍ﴾ أى: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتد فى منطقه وسيرته وأمره. ﴿مُرِيبٍ﴾ أى: شاك فى أمره، مريب لمن نظر فى أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أى: أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. وقد تقدم فى الحديث: أن عنقاً من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق: إنى وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، وبالمصورين ثم تنطوى عليهم (١) . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن نبى الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس. فتنطوى عليهم، فتقذفهم فى غمرات جهنم »(٢) .

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: هو الشيطان الذى وكل به: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: يقول عن الإنسان الذى قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: ما أضللته ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: بل كان هو فى نفسه ضالا قابلا للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى فى قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] .

وقوله: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدى الحق فيقول الإنسى: يا رب، هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. ويقول الشيطان: ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أى: عندى ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾ أى: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين. ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾: قال مجاهد: يعنى قد قضيت ما أنا قاض ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أى: لست أعذب أحدا بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) المسند (٣/ ٤٠) والترمذى (٢٥٧٤) وصححه الألبانى .
(٢) المسند (٣/ ٤٠) وصححه الألبانى .

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهى تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أى: هل بقى شىء تزيدونى؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث:

روى البخارى عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «يُلقَى فى النار، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط » (١). وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكَرَمك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول الجنة». ثم رواه مسلم (٢). وروى البخارى عن أبى هريرة ـ رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان ـ: « يقال لجهنم : هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب، عز وجل، قدمه عليها، فتقول: قط قط » (٣).

وروى البخارى، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله، عز وجل، للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا آخر» (٤). وروى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فىَّ الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: فىَّ ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى بينهما ، فقال للجنة : إنما أنت رحمتى ، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشاء من عبادى ، ولكل واحدة منكما ملؤها » انفرد به مسلم دون البخارى من هذا الوجه (٥). والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد رواه الإمام أحمد عن أبى سعيد بأبسط من هذا السياق فقال: عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أى رب، يدخلنى الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله، عز وجل، للنار: أنت عذابى، أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتى، وسعت كل شىء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فيلقى فى النار أهلها فتقول: هل من مزيد؟ قال: ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يأتيها عز وجل، فيضع قدمه عليها، فتنزوى وتقول: قدنى، قدنى. وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى، فينشئ الله لها خلقا ما يشاء» (٦).

وعن ابن عباس ، ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل فى من مكان يزاد فىَّ ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: وهل فى مدخل واحد؟ قد امتلأت. فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ إنما هو بعدما يضع عليها قدمه، فتنزوى وتقول حينئذ: هل بقى فىَّ مزيد يسع شيئا ؟. قال ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة. فالله أعلم.

---

(١) البخارى (٤٨٤٨) .
(٢) المسند (٣/ ٢٣٤) ومسلم (٣٨/٢٨٤٨) .
(٣) البخارى (٤٨٤٩) .
(٤) البخارى (٤٨٥٠) .
(٥) مسلم (٢٨٤٧) .
(٦) المسند (٣/ ١٣) .

وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قال قتادة، وأبو مالك، والسدى: ﴿أُزْلِفَتْ﴾ : أدنيت وقربت من المتقين ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت قريب . ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أى: رجاع تائب مقلع ﴿حَفِيظٍ﴾أى: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه. وقال عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ الذى لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله، عز وجل. ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أى: من خاف الله فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله ﷺ : «ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه» (١) . ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أى: ولقى الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه. ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أى: الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أى: يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبغون عنها حولا.

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أى: مهما اختاروا وجدوا، من أى أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم. وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة، كان حمله ووضعه وسنّه فى ساعة واحدة». ورواه الترمذى . وقال الترمذى: حسن غريب، وزاد «كما يشتهى» (٢) . وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صُهَيب بن سنان الرومى: أنها النظر إلى وجه الله الكريم (٣) .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ۝﴾

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين ﴿مِن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أى: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: ضربوا فى الأرض . وقال قتادة: فساروا فى البلاد، أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها، ويقال لمن طوف فى البلاد: نقب فيها. وقوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أى: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أى: لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أى: لُبٌّ يَعِى به. وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أى: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه. وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يعنى: لا يحدث نفسه فى هذا بقلب. وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثورى وغير واحد.

---

(١) البخارى (٦٦٠) .
(٢) المسند (٩/٣) والترمذى (٢٥٦٣) وصححه الألبانى .
(٣) مسلم (١٨١/٢٩٧) .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأحرى. وقال قتادة: قالت اليهود ـ عليهم لعائن الله : خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أى: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وكما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يعنى: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلا، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس فى وقت الفجر، وقبل الغروب فى وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبى ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ فى حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد روى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾. ورواه البخارى ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيل، به [(١)].

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى: فصل له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة. ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العُلَى والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» [(٢)]. والقول الثانى: أن المراد بقوله: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلى، وابنه الحسن وابن عباس، وأبى هريرة، وأبى أمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والنَّخَعى والحسن وقتادة، وغيرهم. روى الإمام أحمد عن على قال: كان رسول الله ﷺ يصلى على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة. ورواه أبو داود والنسائى [(٣)].

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ

(١) المسند (٤/ ٣٦٥) والبخارى (٤٨٥١) ومسلم (٦٣٣/ ٢١١) .
(٢) البخارى (٦٣٢٩) ومسلم (٥٩٥/ ١٤٢) .
(٣) المسند (١٠١٢) وأبو داود (١٢٧٥) والنسائى فى الكبرى (٣٤١) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح ».

نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى: ﴿واستمع﴾ يا محمد ﴿يوم ينادِ المنادِ من مكانٍ قريب﴾ قال قتادة: قال كعب الاحبار: يأمر الله تعالى ملكا أن ينادى على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والاوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ يعنى: النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أى: من الاجداث ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ أى: هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازى كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله تعالى: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا﴾: وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق فى قبورها، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء، فإذا تكاملت الاجساد أمر الله إسرافيل فينفخ فى الصور، وقد أودعت الارواح فى ثقب فى الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الارواح تتوهج بين السماء والارض، فيقول الله، عز وجل: وعزتى وجلالى، لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم فى اللديغ وتنشق الارض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مبادرين إلى أمر الله، عز وجل، ﴿مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ [القمر:٨]، وقال الله تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا﴾ [الإسراء:٥٢]، وفى صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض» (١). وقوله: ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أى: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير﴾ [لقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ أى: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٩٧ـ ٩٩]. ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أى: ولست بالذى تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به. ثم قال تعالى: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ أى: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فذكر إنما أنت مذكر. لست عليهم بمسيطر﴾ [الغاشية:٢١، ٢٢]، ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ كان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم.

---

(١) مسلم (٣/٢٢٧٨) من حديث أبى هريرة.